التربية في الاسلام (١)

بحث مقارن

حضرات الاخوان والاخوات

إنه لمن دواعي الغبطة أن يتاح لنا هذا الاجتماع في مطلع الموسم الثقافي الذي نظمته دار المعلمين العالية ، وإنه لمن الحق كذلك أن نشكر الأصدقاء الأفاضل الذين هيأوا لنا جميعاً هذه الفرصة الشائقة .

أرجو قبل كل شيء أن توطّدوا أنفسكم على العيش معي ساعة أو بعضها في الماضي على شرط ألا يشغلنا عن الحاضر أو المستقبل ، فانما يطيب لنا العيش أحياناً في الماضي لنستوحي ونستلهم ما يُسدد خطانا في الحاضر والمستقبل إن شاء الله . خصوصاً ونحن نجتاز هذا اليوم مرحلة حاسمة من مراحل تأريخنا الطويل .

مضى على العالم الاســـلامي ردح من الزمن وهم مضطربون بتربية نشئهم وتعليمه وفقاً لنظم مختلفة ، بعضها قديم متحجر لا يصل بالأمة الى أهدافها ومثلها العليا المنشودة في هذا العصر وبعضها حديث قلدنا فيه نظم الغرب حذو القُذة بالقُذة ، وبعضها يشبه أن يكون وسطاً بين هذا وذاك . وقد بالغ بعض الأقطار الاسلامية في اصطناع نوع من النظم الأجنبية البحتة وقطعوا كل صلة لهم بماضيهم في التربية ، حتى إذا عاد الى الشرق بعض الدارسين في الجامعات الغربية عادوا وهم أعرف بتلك البلاد الأجنبية منهم ببلادهم، وأدرى بتأريخ الأمم الأجنبية منهم بتأريخ أمتهم ، وأبرع بالعمل تحت قيادة الأجنبي منهم تحت قيادة المواطنين .

---

(١) محاضرة ألقاها الأستاذ محمد رضا الشبيبي في « كلية التربية » دار المعلمين العالية .

ظنّ بعض المقلدين الظنون بقيمة الجهد الذي بذله المسلمون في هذا المضمار ، وزعموا أن القوم ناقلون وأن حظهم من الابداع والابتكار أقل من القليل ، وتوهموا ان التعليم فى العصور الاسلامية القديمة آليّ عقيم يستند الى الحفظ والتكرار ، ولا يخلق مقدرة ما على التفكير والتنظيم وتحمل أعباء المسؤوليات .

وبعد فهذه محاولة لتفنيد بعض تلك الظنون الباطلة ، محاولة للدفاع عن بعض الجهد الذي بذله قدامى المربّين المسلمين فى سبيل غرس أسمى المبادي والأخلاق فى نفوس النشء ، وتلقين أدق الآراء والأفكار . وهي الى أن تكونَ محاولةً تأريخية متواضعة أقرب من أن تكون شيئاً آخر ، ومع ذلك فمحاولتنا لا تخلو من الموازنة بين مختلف النظم والطرائق التعليمية والتربوية التي عرفت فى شطري العالم الاسلامي القديم شرقاً وغرباً ، فلم تكن أساليب التربية والتعليم فى العالم المذكور واحدة ، بل كانت هناك فوارق تميز أساليب المشارقة عن أساليب المغاربة وان لم تكن فوارق أساسية فى كثير من الأحيان ، فهذه طريقة عملية واقعية ، وتلك طريقة نظرية أو مثالية ، وههنا نظام ضروري مستقر للتعليم فى مرحلته الابتدائية . وهناك منهج للبحث العلمي الدقيق الواسع فى مرحلته الجامعية العالية .

قام مجد الاسلام وحضارته على دعائم من التربية هي التربية الاسلامية بمبادئها ومقوماتها التي ثابر المربون من المسلمين على غرسها فى النفوس . فأخذوا الناس بالصدق فى القول والاخلاص فى العمل والاستقامة فى السلوك ودعوا الى الرجولة وضبط النفس والى التعاون والبذل والمفاداة ومجّدوا الحرية والمساواة وأكبروا التطلع الى النور والمعرفة فعاشت الأمة حكيمة مرهوبة الجانب ، محبةً للنظام تعمل إذا دُعيت للعمل وتقول كلمة رأيها اذا طلب منها القول وتبذل اذا أريد منها البذل والمفاداة .

كانت درجات التعليم فى الاسلام كما هي اليوم ثلاثة ابتدائية واعدادية وجامعية . وعني

بالعمل في هذه الدرجات وبوضع البرامج والمناهج واختيار الكتب والمواد جهابذة تأصّل فيهم الميل الى ممارسة فن التربية ، وكانت لهم رسالتهم في هذه الناحية ، فمنهم المشارقة الذين نشأوا في العراق والشام والجزيرة وفي فارس وخراسان وما وراء النهر ، ومنهم المصريون والاندلسيون والمغاربة من أهل قرطبة وافريقية والقيروان ، ولم تكن القيروان دون قرطبة في عصورها الذهبية ، وكانت إليها الرحلة قبل قرطبة والقاهرة من الأقطار المغربية . هذا ولكل من أهل المشرق وأهل المغرب مجهوده وأثره في التعليم ولكل منهجه واتجاهه الخاص .

المدرسة المغربية

نشرت في هذه الآونة كما لا يخفى طائفة من بحوث المربين المسلمين مشارقة ومغاربة . وظهرت دراسات وتعاليق على تلك الرسائل والبحوث ولا شك أن عدداً منا اطلع عليها ، ويلاحظ أن جلّ المربين المعنيين بالنظر في تعليم الأحداث والصبيان أو بالتعليم في مرحلته الابتدائية أو الأساسية ينتسبون الى المدرسة المغربية مدرسة الأندلس والقيروان وافريقية ثم المدرسة المصرية بعد ذلك ، ونستطيع أن نقول إن هذه المدرسة تمتاز بعناية بالغة في هذه الناحية ، وان التوفيق حالف أساتذتها في مجهودهم الذي تجردوا له ، وتخصصوا به في مرحلة أساسية ثابتة من مراحل الدراسة وان أخذت عليها — أي على المدرسة المغربية — عيوب منها العناية بالحفظ والتكرار ، وحشو الذهن بالمحفوظات أكثر من العناية بالبحث والتتبع والاستقراء الى غير ذلك مما قد يجعل هذه الطريقة في التربية آلية عقيمة في كثير من الأحيان ، وقد لاحظ غير واحد من المعنيين بالبحث في التربية هذا الضعف في منهج المدرسة المغربية وندد بعضهم بالطريقة المتبعة في الأندلس والمغرب من حيث اعتمادها على حشو الذهن بالمحفوظات ، وفضل عليها طريقة المشارقة . ومن خصائص مذهب المشارقة التأكيد على الفهم ودقة الملاحظة وخلق نوع من النشاط أو الكفاية الذهنية . هذا مع العلم بأن بعض المعنيين بالبحوث النفسية يرون في الاكثار من المحفوظات ما فيه من الفائدة خصوصاً بعد نسيانها فان رواسبها باقية لا محالة في العقل الباطن وهي تعمل عملها

فى تكوين الملكة خصوصاً فى الفنون الأدبية بل فى المجالات الثقافية اجمالاً . ولابن خلدون ملاحظاته اللطيفة فى ذلك وله أيضاً مذهبه المعروف فى احراز ملكة الأدب والبلاغة والتمكن من ناصية النظم والنثر ، وخلاصته أن قوانين العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وبيانها لا تكفي فى ذلك وانما تتحصل الملكة بكثرة الحفوظ من مختار كلامهم نثراً ونظماً ثم بالمران والمهارسة فان ذلك أجدى على الطالب من تعلم الأصول والقواعد أكثر من الحاجة ، ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة ، والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين اذا سئل فى كتابة سطرين الى ذى مودة أو شكوى ظلامة أخطأ وجه الصواب . هذا ما قاله ابن خلدون وقد دلت التجربة على صحة ما ذهب اليه في هذه الناحية .

مقارنة بين مذهبين :

عنيت مدرسة المغاربة غالباً بتربية الولدان وتعليم الأحداث وشغلت برسم البرامج واختيار الكتب والمواد لمرحلة الدراسة الابتدائية وهي أمور عني بها المشارقة أيضاً ولكن دون عنايتهم بالمراحل الجامعية العالية فان عناية المشارقة بالتعليم الجامعي لا تدانيها عناية . وضع محمد بن سحنون وهو من أعلام المغاربة فى أواسط المائة الثالثة كتاباً مشهوراً سماه « آداب المعلمين » وقد عوّل عليه من جاء بعده ، أو ألف فى تعليم الأحداث ، فلابن سحنون فضل السبق فى هذا الشأن ، وتلاه القابسي القيرواني من أعلام أواسط المائة الرابعة فى المغرب ، وهو مؤلف كتاب سماه « الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين » نقل فيه عن ابن سحنون . ويتميز كتاب القابسي بالتبسط ، فهو أوسع الكتب المصنفة في تعليم الأحداث بل هو الأصل الذي يُعوّل عليه فى فهم المنهج المتبع فى تعليم الولدان خلال المائة المذكورة . ومن رأي بعض الباحثين أنه أكمل كتاب أُلف فى التربية الاسلامية . والكتاب عبارة عن أسئلة وأجوبة فى علم القرآن وتعليمه وكيف ينبغي أن يُعلم الصبيان ، وفيما ينبغي أن يضاف الى تعليم القرآن من مواد أخرى إذ أنّ للمربين المسلمين فى المواد التي تضاف الى تعليم الكتاب الكريم أقوالاً مختلفة ومناهج

متنوعة ، فالمربّون الأندلسيون لا يرون حرجاً في أخذ حصة من الشعر والأدب والكتابة والحساب مع ذلك ، وبعض محدثي القيروان وافريقية وخصوصاً الطبقة القديمة منهم يفضلون الاقتصار على القرآن أولا ثم بعد ختمه وتعلمه يشرعون في تعليم الشعر والأدب والكتابة . وقد ناقش ابن خلدون هذا الموضوع وقارن بين الرأيين وخرج من ذلك بترجيح مذهب القائلين بالاقتصار على تعليم القرآن في مرحلة الحداثة . وفي عصر القابسي القيرواني اي في المائة الرابعة وجد المحدث ابن عبد البر القرطبي وهو مؤلف رسالة سميت « جامع اشتات العلم وفضله » . والمؤلف مقيد بنهج سلفه من أهل الحديث . ولا شك ان الالتزام بنهج المحدثين في التربية افضى الى نوع من الجمود . وجاء بعد هذه الطبقة برهان الدين الزرنوجي[1] . وهو تركي النجار من أهل ما وراء النهر بل هو الوحيد من المشارقة في انتهاجه ذلك النهج في تعليم الصبيان وقد خص هذا الموضوع برسالة سماها : « تعليم المتعلم طريق التعليم » استفاد منها المطون والمربون في الاقطار التركية الواقعة فيما وراء النهر وبقية البلدان الاسلامية . وتتضمن رسالة الزرنوجي هذه وصايا قيمة للمتعلمين من ذلك قوله : « ينبغي لطالب العلم ان يكون مستفيداً في كل وقت ، وطريق الاستفادة أن يكون معه في كل وقت محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية ، قيل : ما حفظ فرّ وما كتب قرّ » ومع ذلك لا نعرف شيئاً يعتد به عن سيرة الشيخ الزرنوجي ولم نعثر له على ترجمة وافية بالمرام ، ومرد ذلك الى انه كان غاية في انكار الذات ميالاً الى العزلة والخمول ، وخطر رسالة الزرنوجي يتأتى من ناحية استفاده الى النصوص ، والى طريقته التطبيقية . ويلاحظ انه يعزز آراءه بشواهد وأمثلة غير قليلة شأن المربي الحريص على الاستعانة بوسائل العمل والمشاهدة فاذا عزز رأيه بمثال من حكاية أو واقعة أراد ان يتمثل

---

(١) زرنوج والمشهور في اسمه « زرنوق » بالقاف بلد مشهور بما وراء النهر بعد « خجند » من اعمال تركستان ، هكذا قال ياقوت في معجم البلدان ، ولم يذكر السمعاني هذه التسمية في كتاب الانساب .

الطالب أو القاريء تلك النماذج والأمثلة لينسج على منوالها في التعليم أو فى التربية . والخلاصة هذه الرسائل عبارة عن برامج اسلامية ومناهج شرعية في التربية مضافاً اليها وصايا وارشادات وافادات شتى أسداها هؤلاء المؤلفون ، والواقع انهم اجزل الله ثوابهم أصابوا الأهداف فى برامجهم ، فهي برامج وضعها مربون بكل ما فى هذه الكلمة من معنى بالنسبة الى العصور المذكورة وسدوا بها حاجة السواد الاعظم من الناس ، وقد روعيت فيها ولا شك بعض الحقائق المقررة فى علم النفس فان خبرة هذه الطبقة بدخائل النفس البشرية اجمالاً مما لاشك فيه ولو كانت خبرة محدودة . ومن هذه الناحية رأيناهم يؤكدون على ضرورة التدرج فى مراحل التعليم واستخدام الرفق واللطف وتجنب العنف مع الولدان وسائر المتعلمين وانتهاج طريقة الترغيب دون الترهيب وهم في باب مراقبة أحوال الصبيان والمتعلمين وملاحظة استعدادهم ومواهبهم الفطرية نصائح حسنة .

هذا من جهة ، وفى وسعنا من جهة أخرى تقسيم جهابذة التربية فى العالم الاسـلامي الى ثلاث طبقات ، الأولى: طبقة الفقهاء والمحدثين واليها ينتمي أكثر المربين من المغاربة وقد امتازت برامجها فى تربية الأحداث والصبيان بكونها برامج واضحة مفهومة لالبس فيها ولا تعقيد ، والطبقة الثانية : النظار والفلاسفة واليها ينتسب جمهرة المربين من المشارقة ، ولا تخلو بعض مناهجهم من تعقيد أو غموض ، والثالثة : طبقة المتصوفة وفى مناهجهم وطرقهم كثرة . ويعنى المتصوفة على علاتهم بتربية الراشدين .

المدرسة المشرقية

مضى القول فى طبقة المربين من المغاربة ومذهبهم في التربية ، وبقي علينا ان نعقد فصلاً عن المربين من المشارقة وطريقتهم ومذاهبهم . ونعني بالمشارقة العلماء والفلاسفة والنظار الذين نبتوا فى المشرق — وفى طليعته بلادنا العراقية وما اليها — . وسنشير فى هذا الفصل وما بعده الى بعض

الفوارق والميزات بين مذاهب المشارقة والمغاربة في هذا الشأن ، والى أثر البيئة والمنشأ في ظهور تلك الفروق والميزات .

بين البيئة في العراق والبيئة في البلدان المغربية والافريقية فروق لا يستهان بها ، ففي العراق قبل غيره من البلدان دونت العلوم الاسلامية الأصيلة ونقلت العلوم والفلسفة الدخيلة ، وظهرت الأصول والمدونات الكبرى في الثقافتين ، وعن العراق والعراقيين نقلت تلك العلوم والفنون وانتشرت في الخافقين ، فلا غرو اذا اختلفت نظرة العراقيين عن نظرة غيرهم الى جملة من مناحي الحياة ومنها التربية ، وكان ذلك الاختلاف في وجهة النظر واضحاً في بعض الاحيان بل هو أشبه بما يقع من خلاف بين أستاذ وتلميذ في هذه الناحية .

سبق العراقيون الاولون في صدر الدولة العباسية غيرهم في معالجة كثير من الموضوعات العلمية والأدبية والتصنيف فيها . ومن ذلك علم التربية وحسبنا ان نتصفح رسائل ابن المقفع كالأدب الكبير والأدب الصغير ـ وكلة الأدب هنا تعني التربية [1] ـ أو كتب الجاحظ كالبيان والتبيين رسالة المعلمين ولا تزال مخطوطة ، ومنها نسخ في بعض المكتبات ، ومن يقرأ الجاحظ يجد في تضاعيف كتبه كثيراً من نوادر المعلمين وأخبارهم وما الى ذلك . هذا وفيما

---

(١) قال ابن المقفع في معنى أثر التربية . وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمى العقول وتزكو ، وكما ان الحبة المدفونة في الارض لا تقدر ان تخلع يبسها وتظهر قوتها وتعلم فوق الارض بزهرتها وريعها ونضرتها وغنائها الا بمعونة الماء الذي يفور اليها في مستودعها فيذهب عنها اذى اليبس والموت ، ويحدث لها باذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها لا قوة ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يشملها الماء الذي هو حياتها ولقاحها .

هذا ما قاله ابن المقفع — ولا يذكر هذا الكتاب حتى يذكر معه كتاب « كليلة ودمنة » وهو كتاب وضع في السياسة وتهذيب النفس والاخلاق وضربه الأمثال على لسان الحيوان ، وضع اصله بالهندية ثم نقل الى الفارسية وعن الفارسية ، نقله ابن المقفع الى العربية في عصر أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس فهو من ذخائر الشرق وتراثه الثمين بل هو تراث الانسانية في الحكمة والآداب ونصح السلطان ووعظ الحكام ولا يوجد في الاصل بعض فصول الكتاب المتداول والمرجح انها من مضافات ناقله ابن المقفع ، =

نقل من اليونانية والسريانية والفارسية في عصر المأمون وقبل عصره وبعد ذلك جملة من الرسائل المجردة في فلسفة التربية ، ثم تكونت هيئات وجماعات عنيت بالفلسفة والتربية ، ومن ذلك اخوان الصفاء في رسائلهم المعروفة وفي قريب من عصر اخوان الصفاء عاش « المعلم الثاني » . أبو نصر الفارابي ، وكان من أساطين التربية والتعليم ، وحسبنا ان نرجع الى ما وصل الينا من مؤلفاته ومنها كتابه الذي سماه « آراء اهل المدينة الفاضلة » . وفي هذا الكتاب نبذة عن التربية . على ان اكثر مصنفات الفارابي التي وقعت الينا كتابه الذي سماه « احصاء العلوم » عني فيه بتصنيف العلوم وترتيبها ، وتكلم على موضوعاتها واغراضها وما الى ذلك . وما مضى عصر الفارابي حتى جاء عصر ابن مسكويه الذي عني عناية بالغة بشؤون التعليم والتهذيب والاصلاح في كتابه المسمى « تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق » . وفي هذا الكتاب نقل عن فلسفة اليونان ولكن المؤلف أوصى ان يربى النشء المسلم وان يؤدب أولاً بآداب الملة واحكام الشريعة وان ينهض بشرائطها ووظائفها ، وله أن ينظر بعد ذلك في الفلسفة ، ولابن مسكويه في توجيه طالب الحكمة وارشاده وسائل لطيفة .

هذا وقد كثر عدد الفلاسفة المعاصرين لابن مسكويه ، وكان اشهرهم بل أشهر فلاسفة الاسلام الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا ، عني بشؤون التربية والتعليم في جملة ما عني به من العلوم والفنون وقد احتفلت المؤسسات العلمية والجامعات في العالم بأسره بذكراه الالفية منذ خمس سنوات ونشرت بهذه المناسبة جملة من البحوث والدراسات العلمية والفلسفية وهكذا عاش ابن سينا الى هذا اليوم والى ما شاء الله ان يعيش وكأنه مدرسة حية .

يطول بنا نفس البحث اذا أردنا احصاء عدد المعنيين بالتهذيب والتعليم والتربية من فلاسفة

= ومهما كان فان الترجمة منقطعة النظير في الجودة ولو كتب الأصل بأسلوب عربي بليغ لما كان احسن من هذه الترجمة . ولابن المقفع بعد ذلك مذكرة نفيسة في نقد نظام الحكم وبيان طرق اصلاحه ألفها في شكل رسالة سماها « رسالة الصحابة » وقد اتهم الرجل بالزندقة وهو في كتبه المعروفة بريء من ذلك . ومن أئمة الأدب من غمز ناقل « كليلة ودمنة » من ناحية التصرف في الأصل بزيادة أو نقصان ونحن نقول حبذا لو أسفر التصرف في نقل بعض الكتب عن مثل ذلك .

المشرق وحكماء العرفان ، ولكن هناك نمطاً آخر ممن أولعوا بالتربية وعشقوا ممارستها والكتابة أوالتأليف فيها لا يسعنا اغفالهم ، وفي مقدمتهم الإمام أبو حامد الغزالي ، وكتبه حافلة بشذرات عن تربية الصغار وتعليم الكبار ، وحسبنا ان نرجع الى « احياء العلوم » والى رسالته التي اختار لها عنوان « ايها الولد » : فانها من انفس ما كتب في هذا الباب . ثم الى كثير من تصانيفه مثل كتابه المسمى « ميزان العمل » فلا يخلو هذا الكتاب من شذرات عن أثر البيئة في التربية وهكذا كتابه المسمى « فاتحة العلوم » ، ويكثر الغزالي [1] من استخدام لفظة « التربية » وكلمة « التعليم » في كتبه ، وما أقل استعمالها في مصنفات غيره من العلماء ، وليس ذلك بعجيب ممن كان في عداد أكابر المدرسين في المدرسة النظامية المشهورة ببغداد .

من نمط الغزالي في عنايته بالتربية على طريقة الفقهاء والمحدثين الماوردي [2] في كتابه

(١) قال الغزالي (ميزان العمل ص ٦٨) ان ما خلق الله قسمان : قسم لا دخل لنا فيه كالسماء والكواكب ، والقسم الذي خلق وجعلت فيه قوة القبول كمال بعده اذا وجد شرط التربية . وتربيته هذه تعلق بالاختيار ، فان النواة ليست تفاحاً ولا نخلا ولكنها قابلة بالقوة لان تصير نخلا بالتربية وغير قابلة لان تصير تفاحاً ، وانما تصير نخلا اذا تعلق بها اختيار الآدمي في تربيتها ، فلذلك لو أردنا ان نقتلع بالكلية الغضب والشهوة عجزنا عنه ، ولكن اذا أردنا قهرهما أو اسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه .

(٢) عقد الماوردي في كتابه فصولا في التهذيب والتعليم منها فصل فيما يتأدب به المتعلم ويكون عليه العالم ، وفصل آخر عنوانه « أول ما يكون عليه العلماء من الاخلاق » وقد ألم فيه بآراء شبيهة بآراء المتأخرين من علماء التربية ، ومما قاله : ومن آدابهم — آداب المعلمين — ان لا يعنفوا متعلماً ولا يحقروا ناشئاً ولا يستصغروا مبتدئاً فان ذلك ادعى اليهم وأعطف عليهم واحث على الرغبة فيما لديهم » ومما روى عن النبي قوله : علموا ولا تعنفوا فان المعلم خير من المعنف . والماوردي كلمة اخرى حذر فيها المتعلم من التبسط والادلال على استاذه ، وان تقدمت صحبته ، وقد بلغ غاية الابداع في اشارته الى بعض الصفات الحسنة التي يجدر بالمعلمين ان يتصفوا بها ومن أخصها الفطنة والفراسة وما لها من صلة وثيقة بروح التربية ، وفي هذا المعنى يقول « ينبغي للعالم أن تكون له فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله ذكاؤه أو لا تضعف عنه بلادته فانه أروح للعالم وانجح للمتعلم » . هذا ما قاله الماوردي ، ولابن خلدون في هذا المعنى بحث طريف شبه المربي فيه بالطبيب ، فالطبيب الحاذق لا يعالج المرضى بعلاج واحد وانما يعالجون بحسب اختلاف مرضهم وأسنانهم وقابلياتهم وما الى ذلك .

أدب الدنيا والدين ، والطبرسي فى مكارم الأخلاق ، ونصير الدين الطوسي فى جملة من كتبه ومنها كتاب عنوانه « آداب البحث » وآخر عنوانه « اخلاق ناصري » بالفارسية وفيه كلام مبسوط عن العدالة . والشهرزوري فى « رسائل الشجرة الالهية » . وزين الدين العاملي المعروف بالشهيد الثاني فى كتابه « منية المريد في آداب المفيد والمستفيد » الى كثير غير ذلك من الكتب التي تعتبر مآخذ أو مراجع فى فن التعليم والتربية وفي آداب البحث والدراسة ، هذا وفى الديار الشرقية قبل غيرها — كما لا يخفى — أحدثت دور العلم وشيدت مباني المدارس بأقسامها ومرافقها على صورة لا تختلف كثيراً عن هذه الصورة المعهودة فى الوقت الحاضر فأقام العلمية وبعض الاساتذة فيها ، وحسبنا تلك المدارس الضخمة التي شيدها فى المائة الخامسة نظام الملك وزير السلاجقة فى نيسابور أولاً وفى بغداد ثانياً فنسبت اليه وسميت باسمه وقيل لها « المدرسة النظامية » شيدها بكافة مرافقها وأقسامها ومكتباتها وموقوفاتها وجراياتها وما الى ذلك حتى اخرجت جهابذة يشار اليهم بالبنان ، ولما تداعت المدرسة النظامية انشئت فى أواسط المائة السابعة المدرسة المستنصرية ولا تزال معالمها تشهد بعظمتها وعظمة الحركة العلمية فى العصر الذي أنشئت فيه .

ما اكثر النوادر والفوائد واللتف الخاصة بتعليم الصبيان واحكامه ، وتأديب الاحداث وأساليبه ومناهجه وأحوال المعلمين والمؤدبين التي نجدها فى تضاعيف كتب التاريخ والأدب ، ومنها كتب الجاحظ كالبيان والتبيين ورسائل ابن المقفع وكتب ابي حيان التوحيدي ، وما الى ذلك . هذا والفرق بين الفقهاء والمحدثين والادباء والكتاب فى هذا الشأن ان الاولين مارسوا التربية علماً وعملاً واختصوا بذلك وامتهنوا التدريس فأصابوا نجاحاً كبيراً ووفقوا توفيقاً ظاهراً لخبرة المعنيين منهم بذلك فى علم النفس ، أما الآخرون اي الأدباء والكتاب فانهم عنوا بالاخبار اخبار المؤدبين والمعلمين ، وقيدوا نوادرهم وأشاروا الى أساليبهم فى التربية ومع ذلك لم يستطع واحد منهم تجريد كتاب فى فن التربية أو رسالة فى أصول التعليم بخلاف غيرهم من المحدثين والمفسرين والفقهاء المتقدمين لهذه الأعمال .

لا شك فى خطر الجهد الذي بذلته الدول الفاطمية والأتابكية والايوبية ودولة المماليك وما أنشأته هذه الدول من مدارس فى الموصل والشام وفلسطين والقاهرة من هذا القبيل ، ولا شك كذلك في خطرما أنشأ فى بعض بلدان المغرب ولكن فضيلة السبق والتجديد كانت للمشرق والمشارقة ، ومن ثم طرست على غرارهم بقية الدول والبلدان .

هكذا اختلفت طبيعة الحركة التعليمية ومظاهرها باختلاف البلدان والبيئات وتفاوت الظروف وخواص المكان والزمان ، وهكذا اختلفت مستويات التعليم فرأينا مستواه فى المشرق جامعياً عالياً فى غالب الاحيان بينما وقفت حركة التعليم فى الاندلس وفى المغرب دون المستوى المذكور غالباً الا ماكان فى بعض عصور قرطبة والقيروان والقاهرة ، وفى هذه العصور اشتهر ابن ياجه وابن الطفيل والقاضي أبو الوليد ابن رشد وبنو زهر وغيرهم من فلاسفة الديار الاندلسية ، وبالجملة تميز حكماء المشرق ونظاره بدقة البحث وسعة الأفق ولم يقفوا عند حد النقل والجمع دون الحكم والترجيح ولا شك ان تلك الحركة العلمية حركة البحث والتأليف انتقلت الى الديار المصرية بعد خراب المشرق على أيدي المغول .

رأي ابن خلدون فى قرارة المدرستين

عقد ابن خلدون فصلاً بل فصولاً مهمة عرض فيها لنقد اصول التربية والتعليم المعروفة فى عصره . وفى هذه الفصول فرّق بين الشرق والمغرب ، وقارن بين مختلف البرامج والمناهج التعليمية المتبعة هنا وهناك ، ولاحظ على منهج المغاربة قلة العناية بالتطبيق ، والمذاكرة والمناقشة . لاحظ ضرر الجمود على النقل والحفظ بشكل يدل على ضرب من الخمول والقصور ، وفى بعض هذه الفصول يقول بعد اشارة الى مناهج التعليم واوضاعه فى المغرب والى رحلة المغاربة الى المشرق للتحصيل والرواية .

« اعلم ان سند التعليم قد كاد ان ينقطع من أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه . وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس فاستبحر عمرانها وكان فيها للعلوم والصنايع اسواق نافقة وبحور زاخرة ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلاً فى دولة الموحدين بمراكش ، ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية وبقيت فاس وسائر اقطار

المغرب خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض التعليم في قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة » .

هذا ما قاله ابن خلدون عن حالة العلم وأوضاع التعليم فى المغرب ، وله بعد ذلك كلمة صور بها عقم الطريقة المتبعة عندهم من حيث الاقتصار على حفظ المواد والدروس خلافاً لما عليه أهل المشرق ، وقال فى كلمته عن طلبة العلم من المغاربة : « فعسر عليهم حصول الملكة . والحذق فى العلوم ، وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية ، فهو الذي يقرب شاردها ، ويحصل مرامها ، فتجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم : ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه حصل ، تجد ملكته قاصرة ان فاوض أوناظر أو علم . وما أتاهم القصور إلا من أصل التعليم وانقطاع سنده وإلا فان حفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه هو المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك »[1] .

هذا ما قاله ابن خلدون ويستفاد منه ان التعليم عند المغاربة فى العصور التي أشار اليها مجرّد حركة آلية قوامها الحفظ ، فهي عقيمة خالية من الروح مع أنها عند غيرهم عملية إنشائية أو إيجابية عظيمة الأثر فى حياة الأفراد والجماعات .

المشارقة وصناعة التعليم

نوّه ابن خلدون كثيراً بحذق المشارقة في الصنائع وفى مقدمتها صناعة التعليم وأنهم أبرع اهل الدنيا في ذلك حتى وقرّ فى أذهان أهل المغرب أن المشارقة أرقى البشر في أصل الفطرة ، نقل ابن خلدون هذا الرأى عن قوم من أهل العلم رحلوا الى الشرق واتصلوا بأهله وأخذوا عنهم ، وعادوا وهم على يقين بتفوق أهل الشرق في أصل الخلقة والفطرة ، وفي هذا المعنى

(١) مقدمة ابن خلدون ط المطبعة البهية ٣٠٣ .

يقول « فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة التعليم بل سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى الشرق في طلب العلم أن عقولهم ـ عقول الشرقيين ـ على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى ، وان نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب ، ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية » . هذا ما أورده ابن خلدون وهو رأي طريف بل شهادة قاطعة للشرق ولكن ابن خلدون عاد وختم كلمته بالدفاع عن فطرة المغاربة . وقال ان التفاوت بينهم وبين المشارقة لم يبلغ هذا الحد وانّ قول من قال بذلك لا يخلو من المبالغة ، ومردّ الأمر في الحقيقة كما يراه ابن خلدون الى رسوخ الحضارة في الشرق ، وغلبة البداوة على المغاربة ، وهذا من الرجل دفاع معقول عن أبناء جلدته . فابن خلدون مغربي وزعم بعضهم انه من البربر وحجتهم في ذلك مذهبه وأقواله في العرب وسجاياهم البدوية ، والخلاصة : هذا ما خرج به ابن خلدون بعد درس مختلف الاوضاع التعليمية والتربوية في العالم الاسلامي ، وبعد المقارنة بين ما اصطلح عليه المشارقة بما اصطلح عليه المغاربة من حيث الجمود على الحفظ وعلى أقوال الشارح ، أو من حيث العناية بتنمية المدارك والمواهب ، هذا ما أورده مؤرخنا الفذ منذ أكثر من سبعمائة سنة . ونلاحظ نحن اليوم أن تلك السجايا والطباع لم تتغير تغيراً يذكر خلال هذه العصور الطويلة ، وان البيئة وخواص الزمان والمكان ما زالت تعمل عملها وان العراقي يولد وهو مطبوع على الاقتصاد في الكلام حتى يتوهم فيه المي والخبسة ، ومع ذلك لا ينكر ما فطر عليه من العمق والغور بخلاف غيره ، ويلاحظ هذا اليوم ان حفظ اخواننا المصريين وبعض المغاربة أبلغ من حفظ سواهم ، وأنهم لا يجارون في قوة الذاكرة وطلاقة اللسان كما كان عليه أجدادهم في سالف الأزمان .

محمد رضا الشبيبي